الهجرة
في الثقافة الأمازيغية

أعمال الندوة الوطنية التي نظمها مركز الداراسات الفنية والتعابير الأدبية والإنتاج السمعي البصري بتعاون مع الكلية المتعددة الاختصاصات بآسفي

الهجرة في الثقافة الأمازيغية

2011

Illustration de Fouad Lahbib

هذا الكتاب يتضمن الأعمال التي قدّمت في إطار ندوة «الهجرة في الثقافة الأمازيغية»، والتي تناولَت الموضوع من زوايا متعددة ومختلفة، باللغتين، العربية والفرنسية. وهكذا تطرقت هذه الأعمال إلى الهجرة في المجال الأمازيغي من الناحية التاريخية، وحضورها في المتخيل الأدبي وفي الممارسة الفنية والمجال السينمائي، بالإضافة إلى تأثيراتها في اللغة لدى الناطقين بالأمازيغية. وبما أن للهجرة دورا كبيرا في الحراك الاقتصادي والاجتماعي، فإن بعض الأعمال المتضمنة في الكتاب تسلّط الضوء على دور الهجرة وانعكاساتها في حركة التجارة وتهيئة العمران والفضاء في مناطق مهمة بالمغرب.

Les communications contenues dans cet ouvrage constituent l'ensemble des actes du colloque sur le phénomène de la migration dans la culture amazighe. Elles mettent en évidence le rapport qui existe entre les incessants mouvements des populations et la création littéraire et artistique, mais aussi l'impact de ce phénomène sur l'évolution de la société et sur son mode de vie.

13 DH

بيبليوغرافيا

محمد شفيق1993 : "المعجم العربي الأمازيغي". الجزء الأول، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، سلسلة معاجم.

AKNIN, (A), 2001, *Gestion des risques et migration dans les pays en développement : une mise en perspective de la nouvelle économie des migrations de travail*; Thèse de doctorat en sciences économiques, Université de Versailles – Saint Quentin en Yvelines

Ben Attou, (M), 1994, «Ressortissants marocains à l'étranger et l'immobilier : dynamisme ou investissement défensif (le cas d'Agadir) ». *In feuille d'information*, n°3, Réseau Migration et développement, n°109, Paris-Agadir.

Boukouss, (A.), 1977, «L'émigration des Soussis » in B.E.S. M, n°135.

Chattou, (Z.), 1998, *«Migration marocaine en Europe, le paradoxe des itinéraires»*, L'Harmattan, Paris.

Daïde (H.), 1989, *«Rôle de la migration internationale de Travail dans le développement urbain de deux petites villes du Souss, Tiznit et Ouled Teïma »*, Th. Doctorat, Université de Poitiers, France.

Daïde (H.), 2003, «Economie urbaine et économie migratoire, quelle relation ?» *in Rev. Espaces Maghrébins*, n°3 et 4, U.G.M, Casablanca.

De La Fosse (M.), 1924, « Les relations du Maroc avec le Soudan à travers les âges » *in Hesperis*, Archives berbères et Bulletin de l'institut des Hautes Etudes Marocaines, Paris.

INSEA 2000, « Les Marocains résidant à l'étranger : une enquête socio-économique ». Institut National de la Statistique Et de l'Economie Appliquée, Rabat, Maroc.

Justinard (Cne), 1928, « Les Chleuhs dans la banlieue de Paris » *in Revue des Etudes Islamiques*, Paris.

Hnaka(A.),1994, «Migration et mobilité sociale urbaine dans le Souss». Communication au séminaire de Paris VII, Med-Campus n°109.

Hnaka (A), 2004, «Réseaux transnationaux entre l'Europe et le Maghreb, les entrepreneurs migrants soussis dans le grand Agadir » *In Le grand Agadir : mémoires et défis du futur*, publications de la faculté des lettres, Agadir, série colloques et séminaires, 2004.

Montjean (M.), 1942, *L'émigration berbère dans l'Anti-Atlas*, CHEAM, Paris.

Quitout (M.), 2006, «L'enseignement de l'amazighe (berbère) en France et en Europe » *in Le Monde amazighe*, déc. n° 79, Rabat, 2006.

Williamson (J.), 1988, « Migration and Urbanization », *in Handbook of Development Economics*, Vol 1 A , Chenery H. et Srinivasan T., (eds), North-Holland, Elservier Science Publishing, Amsterdan, pp.425-465.

جدلية العلاقة بين الهجرة والتنمية
من خلال بعض الانعكاسات الاجتماعية المجالية بالمغرب

موسى كرزازي

جامعة محمد الخامس أكدال
الرباط

تمهيـد

الهجرة ظاهرة اجتماعية، ارتبطت بظهور الإنسان الذي عرف التحرك عبر المجال خلال الحقب الزمنية المتتالية، من أجل ضمان استمرارية وجوده على البسيطة في بداية حياته، ثم لتحسين ظروف عيشه في مرحلة متقدمة، وأخيرا للوصول إلى نوعية حياة أفضل، تتمثل في جودة مثلى في سكنه، وكذا في ظروف عمله وبيئته المحيطة به، من خلال الخدمات المقدمة إليه .

نسعى من وراء هذه المداخلة، المساهمة في النقاش الدائر حول جدلية العلاقة بين الهجرة والتنمية، من خلال بعض الانعكاسات الاجتماعية والمجالية بالمغرب، وكذا المجال المتوسطي المرتبط به تاريخيا واقتصاديا؛ ذلك أن العلاقة جدلية بين الهجرة والتنمية بصفة عامة .فرغم النقاش الدائر حول أهمية الهجرة، والتساؤل المطروح حول ما إذا كانت الهجرة تساهم في مسلسل التنمية أم تعرقله، فإن الهجرة في جل الحالات، تساهم في تنمية المجالات الترابية وفي تحسين مستوى عيش الساكنة المهاجرة، سواء كان ذلك في مكان المنطلق أو الوصول، رغم صعوبة التعميم والحسم في الموضوع، نظرا لاختلاف ظروف الهجرة، والميكانزمات المتحكمة فيها، والنسبية العلمية في الحكم على النتائج.

إن القارة الأوروبية، من خلال سياسات حكومات بلدانها وطنيا، أو من خلال الاتحاد الأوروبي، مهتمة باستمرار بظاهرة الهجرة وما يرتبط بها من انعكاسات سوسيومجالية واقتصادية وثقافية. فانعقاد مؤتمرات دولية متعاقبة (بالرباط، طرابلس 2006، 2007، وبلشبونة دجنبر 2007؛ وبولونيا 2008) حول موضوع الهجرة والتنمية، له دلالة ومغزى وجب فك رموزها .

وسنحاول في هذا السياق العام، الوطني والمتوسطي، معالجة بعض جوانب هذه الإشكالية الكبرى حول الهجرة من خلال طرح السؤال التالي : "هل الهجرة تساهم في مسلسل التنمية أم تعرقلها، من خلال أمثلة حول انعكاساتها السوسيو مجالية والاقتصادية"؟

1. تعريف الهجرة وتحديد بعض المصطلحات المرتبطة باستعمالها حسب الزمان والمكان

لغويا : الهجرة تعنى انتقال الناس من موطن إلى آخر؛ هاجر فلان أي ترك وطنه .هجر فلان نقله من موطن إلى آخر (المعجم الوجيز،1995، ص 644 و645)

الهجرة Migration (باللاتينية Migratio)، هي انتقال ساكنة من بلد إلى آخر من أجل الاستقرار به. وتتخذ عدة أشكال : هجرة مغادرة، وهجرة وافدة. وقد تنتظم الهجرة على شكل غزو.

كما تعني الهجرة أيضا تنقل ساكنة من مكان إلى آخر كالحركة التراقصية، والتنقلات العادية بين مقر العمل والسكنى (عن قاموس Petit Robert, 1988, ص1199).

جغرافيا[1] : تعني الهجرة (Migration) انتقال شخص (أو مجموعة أشخاص) من مكان الانطلاق(Lieu d'origine أو Lieu de départ) إلى مكان يستقر فيه، يدعى مكان الوصول أو الاستقبال (Lieu d'arrivée, de destination, Lieu d'accueil)

وهنا لا بد من التمييز بين وضعيات المهاجر في الزمان والمكان.

على مستوى المكان :

يطلق على المهاجر(migrant)الذي غادر المكان "مهاجرا مغادرا" أو "نازحا" (Emigrant)، مقابل مهاجر وافد(Immigrant) وهو الذي حل بمكان الوصول واستقر به .

(1) للتوسع أكثر يمكن الرجوع إلى مؤلفنا حول الهجرة والتنمية بالمغرب:

KERZAZI M., 2003, Migration rurale et développement au Maroc, Pub FLSH, UM5A, Rabat, (500 p.).

على مستوى الزمان :

قد تكون نية المهاجر هجرة مؤقتة (Temporaire)؛ أي هجرة لفترة محدودة في الزمن، دون نية في الاستقرار بالمكان الذي حل به : كالبناء الذي غادر الراشدية ليستقر فترة من الزمن في ورش بناء بمدينة معينة (كحي الرياض بالرباط)، ليعود إلى دواره بالراشدية بعد انتهاء الورش. ونفس الشيء يعمم على معظم العمال المغاربة الذين غادروا دواويرهم أو مدنهم بدون مصاحبة أسرهم، واستقروا فترة من الزمن في مدن فرنسا (منطقتي باريس و مرسيليا على سبيل المثال) للاشتغال في معاملها ومناجمها، بفكرة العودة إلى بلدهم الأصلي بعد جمع رصيد من المال .

وهناك شكل آخر من الهجرة يطلق عليه هجرة موسمية Saisonnière وهي مرتبطة بعمل محدد للمهاجرين في موسم معين (كموسم جني الزيتون بسيدي قاسم، أو الحوامض بتريفة والغرب، أو العنب بالسايس)، والرجوع إلى أماكن انطلاقهم .

وينطبق هذا على الهجرة الداخلية (داخل حدود البلد) (Migration interne)، والدولية عندما يعبر المهاجر حدود بلده ليستقر في بلد آخر كفرنسا أو كندا (Migration internationale).

وإذا أردنا التدقيق أكثر، فإن المعنى العلمي لمصطلح الهجرة يقتضي التوفر على عدد من الضوابط[2]منها :

1) التنقل على مسافة مجالية معينة وزمنية للتمييز بين حركات السكان العادية والهجرية .
2) الفاعلون المساهمون في حركة الهجرة. فبالإضافة إلى المهاجرين، هناك من يساهم في عملية الهجرة بصفة مباشرة أو غير مباشرة : كنقل المهاجرين وإيوائهم لفترة قد تطول أو تقصر استعدادا للهجرة، واستقبالهم. فالهجرة مسلسل معقد تتدخل فيه عدة عوامل : المال، والسلطة، والاستراتيجيات..؛
3) الإقامة والسكنى: تغيير الإقامة والسكنى للمهاجر يعني تغيير نسق حياته الاجتماعية والثقافية وانتمائه...
4) تغير الحياة اليومية : تغير جذري للحياة اليومية للمهاجر .

(2) *Dictionnaire de la Géographie et de l'Espace des Sociétés* (Collectif : Sous la direction LEVY (J.) et LUSSAULT (M.), 2006, BELIN.

فالهجرة غير محصورة فقط في عدد المهاجرين وتنقلاتهم من بلد إلى آخر بدوافع سياسية واقتصادية، بل هي عملية معقدة ومركبة. وتنتظم في إطار نظام مجالي وزمني معقد ومتطور باستمرار؛ مجال قد يمتد من الإقليم إلى الجهة، ومن البلد إلى العالم ضمن سلسلة من نقط الانطلاق، ومرورا من نقط العبور، والوصول، والشبكات، وباحات الاستراحة.

إلا أن موضوعنا حول"الهجرة في علاقتها الجدلية بالتنمية "سوف لن يعالج كل التنقلات الاعتيادية للسكان التي تدخل في نمط العيش كالرحل (Nomades) الذين يقطعون مسافات طويلة بدون اعتبارهم مهاجرين «الانتجاع La transhumance»، أو الحركة التراقصية بين مدينة وأخرى (مثلا بين سلا والرباط، أو بين المحمدية و الدار البيضاء) "Mouvement pendulaire، والهجرة القسرية التي تعني تهجير الناس بالقوة Déportation بل الهدف من وراء هذه المداخلة، هو المساهمة في النقاش الدائر حول الهجرة النهائية، في علاقتها الجدلية بالتنمية من خلال بعض الانعكاسات الاجتماعية والمجالية والاقتصادية بالمغرب، وبالمجال المتوسطي المرتبط به تاريخيا واقتصاديا، انطلاقا من بعض الأمثلة. فهل حركات الهجرة، سواء كانت داخلية أو خارجية في مناطق النزوح وفي مناطق الوفود، تخدم التنمية؟ أو بالعكس تعرقلها، وتساهم في تدهور البيئة، بالبادية والمدينة؟

2.الهجرة متباينة حسب انعكاساتها السوسيو-مجالية والثقافية، وكذا في الزمان والمكان

بعد تقديم هذه التعاريف والمفاهيم المرتبطة بالهجرة، وجب التأكيد على أن لكل حركة مجاليه انعكاسات متعددة، أساسها العميق إشكالية التنمية في مكان الانطلاق، ومكان العبور والوصول، سواء كانت تنقلا اعتياديا بين مقر السكنى والعمل، أو هجرة مؤقتة، موسمية أو دائمة . لكن الانعكاسات والعواقب والآثار متباينة حسب نوعية الهجرة. وبصفة عامة، فإن الهجرة الدائمة هي التي لها انعكاسات هامة سوسيو-مجالية واقتصادية وديموغرافية وثقافية، وهذا في جدلية دائمة مع مسلسل التنمية، سواء في مكان المغادرة أو الاستقرار. لأن المهاجر المغادر للمكان الذي قد يكون ولد وترعرع فيه، وقضى فيه فترة من شبابه، وبالتالي أصبح له به ارتباط عاطفي ومادي، هو قرار صعب على عدة مستويات : نفسية واجتماعية وثقافية، لكونه سيغير محيطه الاجتماعي ومقر سكنه، وبيئته الثقافية، وربما

بعض قيمه وعاداته، وحتى نشاطه الاقتصادي ومهنته في مكان الوصول. وهذا ما دفع الباحثين في علوم إنسانية مختلفة لتتبع ملف الهجرة في الزمان والمكان .

فالنقاش المرتبط بالعلاقة الجدلية بين الهجرة والتنمية لا زال مستمرا ولم يحسم فيه بعد، إيجابا أو سلبا. ذلك أن الهجرة في علاقتها الجدلية بالتنمية، هو موضوع بحث في تجدد مستمر حسب الزمن، ووفق ظروف المكان. فقد تنشط الهجرة في فترة معينة ويقع الطلب عليها، كما كان عليه الحال في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية بين المغرب وفرنسا؛ حيث كانت حاجة أوربا ماسة لليد العاملة، وهي التي خرجت مدمرة من الحرب، لإعادة بنائها واستمرار استغلال مواردها. فوجدت ضالتها في مستعمراتها القديمة، ومنها المغرب الذي شجعت هجرة شبابه للالتحاق بالمناجم وأوراش البناء والوحدات الصناعية.

فشباب العالم النامي المهاجر إلى الديار الأوروبية، وفي مقدمته الشباب المغربي، كان يختار منه فقط ذوو العضلات المفتولة والقوية من المرشحين للهجرة، من طرف الوكلاء الذين كانت تبعثهم الشركات لعقد صفقات العقود في عين المكان. هؤلاء استطاعوا بفضل سواعدهم بناء أوروبا (فرنسا بالنسبة للمغاربيين)، وإنعاش اقتصادها. إنه نمو اقتصادي، وتشييد عمراني، وتنمية للبلد، حاضرا ومستقبلا.

وفي المقابل، استفادت أسر وعائلات المهاجرين بعائدات ذويهم من العمال المهاجرين بتحسين ظروف عيشها، وفي مقدمتها السكن والتغذية والملبس. كما استفادت عدة أسر من شراء أراضي لتوسيع حيازاتها العائلية، كما هو حال عدد من المهاجرين ببني يزناسن (سهل أنكاد)، الذين اقتنوا أراضي بفضل عائدات الهجرة منذ السبعينات والثمانينات، بحيث حسنت مجموعة من العائلات مستوى معيشتها، وأصبحت تمتلك أراض زراعية سقوية مجهزة بآلآت ضخ، تستغلها بطرق عصرية، بعد أن كانت في فترة سابقة تشتغل كرعاة وخماسة لدى بعض العائلات التي كانت تمتلك الأراضي والقطيع.

كما أن واحة فيكيك على غرار واحات أخرى -ضمنت استمرارها وانتعاشها بفضل استفادة عدد من العائلات المحلية من عوائد الهجرة الداخلية، وأساسا الخارجية، بفضل الاستثمارات في الفلاحة (زراعة النخيل، وتربية الأبقار)، وخاصة من طرف أولئك المهاجرين العائدين إلى الواحة من فرنسا، الذين استثمروا أموالهم في إنعاش مشاراتهم وتحسين إنتاج التمور وتربية العجول، وتوسيع التمدن بالواحة، حيث كانت بعض الأحياء تنعت بأحياء العمال المهاجرين.

ويضاف إلى ذلك أيضا دينامية فلاحيه تعتمد على تجربة محلية تقوم على السقي العصري خارج الواحة، مكونة من تعاونيات فلاحية وحيازات عصرية في ملك محليين أو بتمويل من مهاجرين استقروا في مدن مغربية، من تجار ومستثمرين بوجدة ومكناس والدار البيضاء..

في هذا الصدد، فقد ورد في نتائج بعض الأبحاث[3] الارتباط الاقتصادي القوي بين قصر زناكة بواحة فيجيج وموارد الهجرة الدولية بشكل كبير (وإن كانت الهجرة الداخلية بنسبة ضعيفة). ويتجلى ذلك في التعمير، والتوسع الفلاحي وتكثيفه وتنويع الخدمات، وتحسين مستوى عيش عائلات المهاجرين الذي تجلى في تغيير المسكن، وشراء قطع أرضية بفضل عائدات الهجرة كتمويل، والموارد البشرية المحلية في التدبير والاستغلال.

"إن الهجرة وخاصة الدولية ساهمت بالملموس في استمرارية الحيوية الاقتصادية والاجتماعية في الواحة المذكورة كغيرها من الواحات المغربية كدرعة. كما قلبت موازين القوى الاجتماعية بحيث أن الأدوار تغيرت داخل المجتمعات التقليدية بصعود قوى جديدة أصبح لها النفوذ، وهبوط أخرى بفضل الحركية الاقتصادية وإعادة توزيع الخيرات والتي أثرت على البنيات الاجتماعية أيضا وعلى المجال" (ايت حمزة محمد،2002، ص 178).

إن أوضاع عدد من الأسر المغربية في المناطق التي مستها الهجرة قديما وأساسا الهجرة الدولية بمناطق سوس وبني يزناسن وفجيج بفرنسا، منطقة الناظور والحسيمة بالبلاد المنخفضة وألمانيا، وحديثا بمنطقة الفقيه بنصالح وتادلة حيث تركز تيار الهجرة نحو إيطاليا، جل هذه العائلات تحسنت أوضاعها بفضل عائدات الهجرة[4].

إن الهجرة الدولية أصبحت في منطقة تادلة آلية من الآليات المتحكمة في دينامية وتنظيم المجال[5].

(3) راجع في هذا الشأن بحث : عبدالكريم مرزوق، المجال والمجتمع بالواحات المغربية، نموذج قصر زناكة بفيجيج، دبلوم الدراسات العليا، شعبة الجغرافيا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، السنة الجامعية 1995-1996) الصفحات(149-167(غير منشور)، وكذا بحث بنشريفة عبداالطيف وهربيرت بوب، 1990.

(4) راجع في هذا الصدد عددا من المقالات في عدد خاص لمجلة جغرافية المغرب حول موضوع " انعكاسات الهجرة الدولية على مناطق الانطلاق"، مجلد15 ، عدد 1 و 2 ، يناير1993 ، السلسلة الجديدية.

(5) أنظر في هذا الصدد بحث : منير صالح، من الفقيه بن صالح إلى ميلانو :الهجرة الدولية المغربية إلى إيطاليا وتأثيرها على مناطق الانطلاق، بحث دبلوم الدراسات العليا، شعبة الجغرافيا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط،1996 ، غير منشور.

3 . تحويلات المهاجرين من العملة الصعبة ساهمت في التنمية الاقتصادية والاجتماعية بأماكن الانطلاق

إذا كانت أوروبا قد استفادت (ومنها فرنسا) من اليد العاملة المهاجرة التي بلغت 3 ملايين مغربي بالخارج؛ أي مغربي واحد من 10 يعيش في الخارج، ومعظمهم يتركز في الإتحاد الأوروبي بنسبة 85%. فقد استفاد المغرب أيضا من العملة الصعبة التي ساهمت في بناء الأواش المفتوحة (البناء، والسدود وتجهيزات السهول المسقية، وبعض الوحدات الصناعية ..). على سبيل المثال استفاد البلد من خمسة ملايير درهم من اسبانيا فقط سنة 2005. وانتقلت تحويلات المهاجرين المغاربة من 2.7 مليار أورو سنة 2000 (وهو ما يمثل 6.5% من الناتج الداخلي الخام) إلى 3.6 مليار أورو سنة 2005 (وهو ما يمثل 9% من الناتج الداخلي الخام)[6]. وللمقارنة مع التحويلات العالمية للمهاجرين فقد بلغت في العالم 300 مليار أورو سنة 2006.

إن مساهمة الهجرة في التنمية الاقتصادية والاجتماعية في أماكن الانطلاق ظلت بارزة خلال فترة النصف الثاني من القرن 20 حيث حركت عدة قطاعات في مقدمتها حركة البناء بجبال الريف، وسوس والمغرب الشرقي ومناطق أخرى من المغرب، والتي ساهمت بدورها في خلق فرص جديدة للشغل، وتشغيل اليد العاطلة المحلية. كما ساهمت بطريق غير مباشر في تنشيط قطاعات اقتصادية مرتبطة بالبناء، كحرف النجارة والحدادة والصباغة. وكذا الاستثمار في شراء الأراضي الزراعية، وتجديد طرق العمل، وتكثيف الانتاج الفلاحي. كما استطاعت بعض الأسر الاستفادة من تكوين أبنائها في المدن بفضل تمويل التعليم لتلاميذ العائلة.

4. الهجرة الدولية : كابوس الهجرة السرية وبلدان العبور

أوضاع الهجرة الدولية متغيرة وغير مستقرة، حيث أصبحت البلدان المستقبلة تنتقي المهاجرين، وتشدد الخناق على الراغبين في الهجرة إلى بلدانها (الهجرة الانتقائية حسب مفهوم الرئيس الفرنسي ساركوزي2007). فرغم إيجابيات الهجرة بصفة عامة المتمثلة في الانعكاسات الاقتصادية والاجتماعية والمجالية في مكان الانطلاق والاستقبال، يمكن طرح سؤال كبير حول مصير الجيل الأول الذي كان يشتغل في ظروف قاسية بأوروبا (فرنسا

(6) HAMDOUCH B., avril 2007 (Exposé par Internet)

وبلجيكا) بمناجم الفحم والمعادن وصناعات الصلب، والأوراش الكبرى كقطاع البناء والتجهيزات الأساسية، ومدى انعكاساتها السلبية على صحتهم وإصابتهم بأمراض لا حصر لها؟ وهل رصيد الهجرة إيجابي أم سلبي على كل المستويات؟

في الوضعية الحالية ظهر نوع"جديد-قديم" من الهجرة "هي الهجرة السرية "التي نظرا لاستفحالها ودراميتها أطلق عليها "الحريك". وظهرت بلدان تدعى بلدان العبور كبلدان شمال إفريقيا، وفي مقدمتها المغرب، الذي أضحى يعيش كابوس الهجرة السرية من بلدان إفريقيا جنوب الصحراء (مالي، النيجر، السنغال ..)؛ في شماله عبر سبته ومليليه المحتلتين، وفي شرقه عبر الحدود مع الجزائر، وفي جنوبه بالمنطقة المقابلة لجزر الخالدات. وأضحى مضيق جبل طارق وحوض البحر الأبيض المتوسط مقبرة للمهاجرين السريين اللذين هم ضحايا وقوتا يوميا لأسماك القرش. ونفس الشيء ينطبق على تونس والجزائر وليبيا المقابلة شواطئها لأوربا. من هذا المنطلق سوف نركز على الهجرة الدولية في علاقتها بحالة المغرب.

5. السياق السوسيو-تاريخي اقتصادي للهجرة النهائية والتحولات الجديدة

إلى عهد قريب يمكن تحديده بفترة الحماية إلى حدود فجر استقلال البلاد، كانت "الهجرة النهائية "غير مستساغة في البوادي المغربية. وكان الشخص المغادر لا يعلن نيته الصريحة بمغادرته الدوار والقبلية، باعتبار أن الإقدام على هذه المبادرة كان يعتبر صعبا، لكون الشخص يشعر بالإحباط وهو يهجر موطن ازدياده ونشأته، وعائلته وعشيرته وقبيلته، ليصبح غريبا في الوسط الجديد الذي سيقطن فيه. فالمهاجر بعد مغادرته الجماعة والعائلة، سيعتمد فقط على نفسه لحل أزماته وكل الصعوبات التي تعترضه. لقد كان محميا في القبلية التي تمكنه من الحصول على قروض من أعيانها بدون فائدة، وخدمات من ساكنة الدوار بدون مقابل مادي، كمشاركتهم التطوعية في بناء مسكنه أو ترميم سطحه أو حصاد محصول مشارته (التويزة...).

إن انعكاسات الهجرة عرفت تطورا حسب نوعية المهاجرين وخصائصهم الديموغرافية وظروف الحياة وتطور المهاجر في عقليته وسلوكه وفلسفة حياته.

فإذا كان الجيل الأول من المهاجرين يقتر في حياته اليومية ليدخر النقود ويبعث بجزء كبير منها إلى عائلته شهريا، ويفكر في بناء منزل فخم بالدوار أو في المدينة المجاورة،

ويساعد عائلته لشراء قطعة أرض، أو أدوات عمل حديثة كالجرار والمحراث العصري وآلة الحصاد؛ هذا الجيل عادة ما كان يفكر بجدية في العودة إلى البلد الأصلي. لكن هذه العودة تبقى نية قد تتحقق أو لا تتحقق . وفي غالب الأحيان تبقى سرابا لا تتحقق(كرزازي موسى 1995)[7].

أما الأجيال الجديدة، كالجيل الثاني والثالث الذي ولد وتربى في بلاد المهجر، فإنه في غالب الأحيان لا يفكر في العودة. بل الأكثر من ذلك فإنه في عدد من الحالات يبيع الإرث الذي تركه والداه في البلد الأصلي ليستثمره أو ينفقه في بلاد المهجر.

من هنا نطرح التساؤل الآتي : هل ستستمر الدولة المغربية في تصور عودة المهاجر بأموال لاستثمارها في بلده الأصلي، وانتظار الحوالات الشهرية من الأسر المهاجرة المقيمة بالخارج لتمويل جزء من عيش عائلاتها الكبيرة في المغرب؟

الواقع أن الحياة قد تغيرت، سواء بالنسبة للمهاجرين في الداخل والخارج، ومعها تغيرت سلوكاتهم وتناقص إحساسهم ووعيهم بضرورة التكافل والتضامن مع العائلة الكبيرة في مكان الانطلاق. وحتى داخل البلد، فإن مفهوم القبيلة عوض في كثير من الأحيان بتنظيمات سياسية ونقابية وجمعوية وتعاونية .كما أن مفهوم العصبية القبلية، والقبيلة التي كانت سندا للفرد في إطار التحام الجماعة قد تغير هو الآخر بحضور مكثف للدولة، ورموزها المالية (القرض الفلاحي، القرض العقاري والسياحي) والمؤسسات البنكية التي أصبحت تمول المشاريع .

وظهرت نخب جديدة على أسس ومنطلقات جديدة (لا تنطلق من القيم القديمة كالشرف وأصل العائلة والزاوية ..) بما فيها نخبة من المهاجرين . فهي أطر من الشباب ذات تكوين عال ولها فكر استثماري في مجالات صناعية وسياحية ومعلوماتية؛ أي في التكنولوجية العالية. كما أن فلسفة الحياة لدى الفرد تغيرت؛ وهو يسير في اتجاه الفردانية وتحسين شروط الأسرة النووية، بدون اكتراث بالعائلة الكبيرة، والعشيرة والقبيلة. وقد زادت العولمة من إضعاف الإحساس بالانتماء إلى الجماعة المحلية والعرقية والقرابة الدموية، ولربما

(7) راجع في هذا الإطار مقالنا حول إشكالية العودة :

KERZAZI (M.)., 1995, « Les immigrés marocains en Belgique entre l'idée de retour et la migration définitive », In Maroc-Belgique, Première rencontre scientifique inter-universitaire, pub. FLSH, UM5A, Série : Colloques et séminaires n° 37 (pp.191-201).

حتى بالانتماء إلى الوطن الواحد بالمفهوم التقليدي للمصطلح، نظرا لحرية الاستثمار في كل بقاع العالم وبالتالي الانتماء للوطن العالمي.

فمن بين انعكاسات الهجرة الدولية داخل المغرب وبأوروبا، يمكن الإشارة إلى أن المغاربة الذين نجحوا في حياتهم المهنية والدراسية بالخارج، قاموا باستثمارات هامة في بلدان المهجر 23% مقابل 70% منهم استطاعوا نقل التجربة للمغرب للاستثمار في بلدهم الأصلي، وتحقيق مشاريعهم وأساسا في العقار، من ادخارات عائدات الهجرة (الفترة 2000-2005)[8] ولكن عددا كبيرا منهم أصابه اليأس، وتخلى عن الفكرة، أو لا زال ينتظر ما سيأتي به المستقبل. وهذا العامل يعتبر منفرا للعودة والاستثمار في الوطن الأصلي، وبالتالي ينقص من التنمية المحلية المحتملة بعدة مناطق بالمغرب. ولاشك أن البيروقراطية والرشوة بالمغرب تقتل الإمكانيات التنموية التي تتيحها الهجرة الدولية. فرغم الجهود التي تعبر عنها الدولة من خلال الوزارة أو كتابة الدولة أو المؤسسة المهتمة بالمهاجرين، فإن الواقع حسب تصريحات عدد كبير من المستثمرين المغاربة الراغبين في العودة للاستقرار بالبلاد غير مشجع، بل هو معيق للاستثمار بالمغرب.

6. آفاق الهجرة الدولية وكيف يمكن للمغرب رفع التحديات مستقبلا

6.1 شراكة مع الاتحاد الأوروبي والمتوسطي

لاشك أن بلدان الاستقبال الأوروبية ستكون مرتاحة إذا ما نجحت تجربة عودة المغاربة في دول المهجر إلى بلدهم الأصلي، في إطار سياسة جديدة للاستثمار. هذا سيساهم في التنمية المحلية بدون شك لتصبح العلاقة جدلية بين الهجرة والتنمية والنمو الاقتصادي بالبلدان النامية، ومنها المغرب الذي له تجربة هامة في ميدان الهجرة منذ ما يقرب من القرن. بعد هذه المرحلة يمكن الاتفاق مع الأطراف المعنية على تنظيم الهجرة القانونية بين المغرب ودول أوروبا لتغطية الخصاص في اليد العاملة، الناتج عن النقص الديموغرافي بأوربا العجوز، لكونها ستكون مضطرة، نظرا لشيخوخة هرمها السكاني، الاستعانة بالطاقات الشابة بدول الجنوب. وسيكون المغرب مؤهلا أكثر من غيره للاستجابة لطلب الاتحاد الأوروبي.

(8) HAMDOUCH B., avril 2007 (Internet)

سيستفيد المغرب أكثر من غيره من جواره بأوربا في إطار السياسة المتوسطية (الاتحاد من أجل المتوسط) الذي بادرت بإنشائه فرنسا وأيدته الأطراف الأخرى في الضفة الشمالية والجنوبية لحوض البحر الأبيض المتوسط. وكان المغرب، كبلد ظل يسعى للحصول على قانون خاص كشريك مميز للاتحاد الأوروبي، سباقا إلى تأييد المبادرة (الاتحاد من أجل المتوسط). وهو اليوم (سنة 2008) في موقع قوي بعد حصوله على الوضع المتقدم المتميز في علاقته بالإتحاد الأوروبي : أكبر من شريك وأقل من عضو.

ولكن لن يحصل التقارب والاندماج الاقتصادي القوي مع أوربا إلا إذا سرع المغرب من إصلاحاته الهيكلية (القضاء، التعليم، الديمقراطية المحلية والتشاركية) ومن وتيرة نموه الاقتصادي، وقلص من مستوى فقره وهشاشته الاجتماعية (6 ملايين فقير، و39%أميا)[9]؛ واستمر في استكمال الأوراش الحالية المفتوحة المرتكزة على تحسين البنية التحتية (ميناء طنجة المتوسط، الطرق السيارة وجدة فاس، ومراكش أكادير)، وفتح أوراش أخرى على المستوى الاقتصادي والاجتماعي والثقافي (ورش جيش المعرفة، ومحاربة الفقر والهشاشة)، والذي من شأنه التقليص من الهجرة الدولية .

فإذا تحققت هذه الإصلاحات والأوراش سيصبح المغرب بلدا مستقطبا للهجرة، وأساسا اليد العاملة على الأمد البعيد (كهولة الهرم المغربي تدريجيا)؛ وعلى الأمد القريب والمتوسط، سيظل بلد عبور واستقرار للمهاجرين من إفريقيا جنوب الصحراء.

6.2 بناء اتحاد مغاربي قوي

بالإضافة إلى تنمية علاقات شراكة ذات نفع متبادل بين المغرب وبلدان الاتحاد الأوروبي والمتوسطي، على الأمد المتوسط، تقتضي الضرورة بالموازاة مع ذلك، تحقيق اتحاد مغاربي قوي ومتكامل يعتبر حلقة هامة في حل عدد من الإشكاليات المغربية والمغاربية المطروحة، وفي مقدمتها الهجرة في علاقتها بالتنمية. يتم هذا عبر تكامل الاقتصاديات المغاربية، وتشغيل فائض الموارد البشرية في أوراش التنمية. لقد عبر المغرب غير ما مرة عن هذه الإرادة عبر مبادرات متكررة لفتح الحدود مع الجارة الجزائر . ولكن لم يحصل بعد وعي حقيقي في وسط الفئة الحاكمة بالجزائر بأهمية الإتحاد المغاربي في التعاون لحل معضلة الهجرة السرية والهجرة في علاقتها بالتنمية.

(9) من المجموع فقراء وأميين 34% الإحصائيات الجديدة 2008 تعطي بالتتابع فقط9

خلاصة عامة

إن الهجرة مرتبطة في أغلب الحالات جدليا بالتنمية، ومسلسلها يمر عبر تحسن ظروف المهاجر أولا، وأسرته الصغيرة والكبيرة ثانيا، ليسمح له الوضع بعد تغطية مصاريف ونفقات حاجياته الأساسية، بالتفكير في الاستثمار بالبلد إذا كانت الظروف جيدة .ومن خلال تتبع حركة المهاجرين المغاربة بأوربا وكندا بالخصوص، يتبين بأن فئة هامة من الشاب المغربي ذات التكوين المهني والعلمي العالي، واعية بأهمية الاستثمار في المغرب، خاصة في إطار العهد الجديد. إلا أن عقلية المهاجر المغربي الذي تربى في بيئة شفافة وديموقراطية يصعب عليه تقبل نوع من ممارسات الإبتزاز والرشوة والعراقيل الإدارية.

فالمطلوب من الدولة خلق شروط مشجعة ونظيفة وشفافة، في إطار حكامة جيدة لاستقطاب استثمار المغاربة الذين يتوفرون على تجربة وخبرة، ولهم رساميل يرغبون في استثمارها بالمغرب. لقد آن الأوان لوضع شباك وحيد، شفاف، وممرن لخلق مقاولات من طرف المهاجرين المغاربة .وفي هذا الصدد يمكن الاستفادة من تجربة تونس"الشباك الوحيد" إذا توفرت فعلا الإرادة السياسية .

ولا شك أن بلدان الاستقبال ستكون مرتاحة إذا ما نجحت التجربة ونظمت عودة للمغاربة في دول المهجر إلى بلدها الأصلي في إطار سياسة جديدة للاستثمار. إن المغرب الذي فتح عدة أوراش اقتصادية لا مفر له من فتح أوراش اجتماعية في بيئة شفافة تسرع من وتيرة النمو والتنمية الشمولية. إن المغرب في وضع يسمح له بتحقيق قفزة نوعية، خاصة وأنه أصبح في وضع متقدم في علاقته بالإتحاد الأوروبي منذ سنة 2008. وبهذه المنهجية العقلانية يمكنه الربط بين الهجرة والتنمية في إطار قانوني يحترم حقوق الإنسان ويحفظ كرامة المغربي.

ولا يمكن حل مشكل الهجرة السرية نحو أوروبا انطلاقا من الهاجس الأمني، بل عبر مقاربة تنموية محلية (البلد الأصلي)، وجهوية (البلدان المغاربية) ودولية (الاتحاد الأوروبي والاتحاد من أجل المتوسط وكذا المنظمات الدولية) وهو تعاون مثمر يساهم في خلق آليات التنمية المحلية الكفيلة وحدها بالتخفيف من حدة الفقر والتهميش، خاصة في إفريقيا جنوب الصحراء.

المراجع الأساسية

مجمع اللغة العربية، المعجم الوجيز،1995 ،

مرزوق (عبدالكريم)، المجال والمجتمع بالواحات المغربية، نموذج قصر زناكة بفجيج، دبلوم الدراسات العليا، شعبة الجغرافيا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، السنة الجامعية 1995-1996، (الصفحات 149-167) ،(غير منشور)

مجلة جغرافية المغرب، عدد خاص حول موضوع " انعكاسات الهجرة الدولية على مناطق الانطلاق"، مجلد15 ، عدد 1 و2 يناير1993 ، السلسلة الجديدة.

منير(صالح)، من الفقيه بن صالح إلى ميلانو : الهجرة الدولية المغربية إلى إيطاليا وتأثيرها على مناطق الانطلاق، بحث د.د.ع، شعبة الجغرافيا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط،1996، غير منشور.

AIT HAMZA (M.), 2002, « Mobilité socio-spatiale et développement local au Sud de l'Atlas marocain (Dadès-Todgha) », Maghreb-Studen, L.I.S Verlag GmbH, Passau.196 p.

BENCHERIFA (A.) & POP (H.), 1990, *L'oasis de Figuig, Persistance et changement*, Pub. FLSH, Univ Mohammed V Rabat, Série : Essais et Etudes n° 3.

DUMENT (G-F.), 1995, *Les migrations internationales. Les nouvelles logiques migratoires*, SEDES, Paris.

HADOUCH (B.), «Migration et développement, aspects stratégiques pour le Maroc» (UMV-Rabat), avril 2007 (Cf. Internet 38528387 (1))

HEIN DE HAAS, «Maroc : de pays d'émigration vers passage migratoire africain vers l'Europe», Univ d'Oford (oct 2005), Cf. Internet : www.migration.information.org (version anglaise).

KERZAZI (M.), 1995, « Les immigrés marocains en Belgique entre l'idée de retour et la migration définitive, *in Maroc-Belgique, première rencontre scientifique inter-universitaire*, pub. FLSH, UM5, Série : Colloques et Séminaires n° 37 (pp.191-201).

KERZAZI (M.), 2003, *Migration rurale et développement au Maroc*, pub FLSH, UM5A, Rabat (500 p.).

KNAFOU (R.) (Dir), 1998, «La planète nomade», les mobilités géographiques aujourd'hui, Paros, Belin,

LEVY (J.) et LUSSAULT (M.), dir., 2006, *Dictionnaire de la Géographie et de l'Espace des Sociétés*

SIMON (G.), 1995, *Géodynamique des migrations internationales dans le monde*, PUF, Paris.

THUMERELLE (P-J), 1986, *Peuples en mouvement. La mobilité spatiale des populations*, SEDES, Paris.